تاريخ العـــرب الأدبى

للأستاذ رينولد نيكلسون

الفصـــل الأول

— ٥ —

وإن نفس عاطفة الوطنية المتأججة فى صدر الهمدانى والتى بعثته على أن يخصص نفسه للبحث العلمى قد أوحت إلى نشوان ابن سعيد — الذى ينتمى من ناحية الأب إلى أسرة قديمة من أشراف اليمن — أن يتذكر الماضى الخرافىّ ويتعلق بأحياء مجد أمبراطورية زالت معالمها ودرست آثارها . وإنه ليتغنى فى « القصيدة الحميرية » بعظمة وقوة أولئك الحكام الذين تبوأوا عرش أمته ، ويؤوّل فى روح إسلامية حقة حقيقية البقاء والحياة ، وحقارة المطامع البشرية[1] ، ومع أن هذه القصيدة فى ذاتها قليلة القيمة فانها تعتبر وثيقة قيمة — نوعاً ما — لاشتمالها على أسماء الملوك[2] ، ومعها شرح تاريخى واف إمّا أن يكون كاتبه نشوان نفسه — وهذا ما يرجحه فون كريمر — أو أحد معاصريه . والذين لا يرون التاريخ إلا مجمل حقائق لن يجدوا مأربهم فى هذا التعليق ، إذ ترى خيوط الحقيقة معقّدة متشابكة مع أساطير خرافية مكذوبة ، وقد وضع القصّاصون فى فجر الاسلام صورة حرفية لمثل هذه الأساطير ، من ذلك أن أحد عرب الجنوب واسمه « عبيد بن شرية » زار دمشق تلبية لدعوة الخليفة معاوية بن أبى سفيان الذى سأله « عن الأخبار المتقدمة ، وملوك العرب والعجم ، وسبب تبلبل الألسنة وأمر افتراق الناس فى البلاد[3] » وطلب اليه أن يكتب وأمر أن تجمع وتكتب إجاباته كلها ثم تنشر باسمه ، وهذا العمل الذى لم تصلنا منه أية نسخة للأسف كان يسمى « كتاب الملوك وأخبار الماضين » وقد تكلم عنه المسعودى[1] (٩٥٦ م) ككتاب معروف متداول فى محيط كبير ، كما اعتمد عليه فيما بعد شارح « القصيدة الحميرية » إما مباشرة أو بواسطة الاكليل للهمدانى . وقد نعتبره — كما اعتبره الشارح نفسه — كقصة تاريخية لكثير من شخصياتها وحوادثها أساس من الحقيقة والواقع قد مُوّهت بكثير من القصص الخيالية والقصائد المكذوبة ، مما يجد فيها السّامر خير عون له على أداء مهمته . ومن بين المؤلفين المسلمين القلائل الذين اهتموا بدراسة تاريخ عرب الجنوب فى العصر السابق للاسلام حمزة الأصفهانى ، وعدّنا الكتاب الثامن من تاريخه (الذى انتهى منه عام ٩٦١ م) بتفاصيل تاريخية دقيقة موجزة عن التبابعة أو ملوك اليمن الحميريين

* * *

خلف قحطان — جدّ أعراب الجنوب — ابنه يعربُ الذى يقال إنه أول من اتخذ العربية لسانا ، وأول من أخذت له التحايا التى اعتاد العرب أن يحيوا بها ملوكهم كقولهم « أنعم صباحا » و « أبيْت اللعن » وقد اشتهر حفيده عبد شمس سبأ باسم مؤسس مأرب وبانى سدها المشهور ، وإن كان هناك آخرون يقولون إن مؤسسه هو لقمان بن عاد ، وكان لسبأ ولدان حمير وكهلان ، وقبل موته عهد إلى حمير بالجلوس على العرش وإلى كهلان بحراسة التخوم ، وشنّ الغارات على الأعداء ؛ ومن ثم كانت لحمير السيادة واتخذ اسم « أبو أيمن » وأقام فى عاصمة المملكة بينما تعهّد كهلان بالدفاع عنها وتدبير الحروب[2] وبالاغضاء عن سرد سلسلة نسب الملوك السبئيين الخرافيين الذين لا تذكر القصة عنهم إلا قليلاً جدا ، فانا نمضى إلى ذكر حادثة رسخت فى أذهان العرب رسوخاً لا يمكن استئصاله منها ، ألا وهى الحادثة المعروفة عندهم بسيل العرم أو فيضان السدّ

(١) Die Himjarisdhe Kasidsh herausgegaben und übers-etzt von Alfred von Kremer (Leipzig, 1865) . W. F. Lrideaux: The Lay of the Himyarites (Sshose, 1879)

(٢) كان نشوان عالما لغويا شهيرا ، وإن قاموسه الكبير « شمس العلوم » لخير عون لمن يدرسون آثار عرب الجنوب ، وقد اعتمد عليه D. H. Müller فى تصحيح أسماء الأعلام التى وردت فى « القصيدة الحميرية » وقد قام الدكتور عزم الدين أحمد بطبع مقتطفات من « شمس العلوم » تتعلق باللغة العربية الجنوبية (E. S. W. Gibb Memorial Serie, vol. xyiv.)

(٣) الفهرست لابن النديم ص ٨٩ س ٢٦

(١) وعما قاله المسعودى « ولم يصح عند كثير من أهل الدراية بأخبار الماضين وسير الغابرين من العرب وغيرهم من المتقدمين فيها إلا خبر عبيد بن شرية وأخباره عما سلف من الأيام وما كان فيها من الكوائن والأحداث وتشعب الأنساب ، وكتاب عبيد بن شرية فى يد الناس مشهور » راجع « مروج الذهب طبعة باريه دى ميناردج ٤ ص ٨٩ » (المترجم)

(٢) Von Kremer : Die Tüdarabische Sage, P. 56

ومن الممكن أن تكون هذه القصة (كما يرى كريمر ص ١١٥) رمزاً لحقيقة ثابتة تلك هى تشعب السبأيين الى فريقين كبيرين : حمير وكهلان وقد كانت القوة فى يد الأول

على بضعة أميال قلائل من الجنوب الغربي لمأرب تمتد الجبال متلاحمة تاركة فيما بينها أخدوداً يشقه نهر « أدنة » الذي يجف غالباً مجراه خلال فصل الصيف ؛ أما في الشتاء فتسقط الأمطار الغزيرة وتتدفق المياه بقوة هائلة تكاد لا تحتمل ؛ فلكي تكون المدينة بمنجاة من الفيضان ولأجل تنظيم الري وزرع الأرض وفلحها بنى الأهالي سداً من الحجر الصلد استرعى خيال محمد بعد أن دمر تماماً ، وعده المسلمون إحدى عجائب الدنيا[1] . وليس بغريب أن ألبس مؤرخوهم تلك الحقيقة المجردة (انفجار السد) ثوب حادثة فضفاضة طريفة[2] وإذ آذنت شمس القرن الثالث للميلاد بالمغيب[3] أو قبل ذلك بقليل كان يتربع على عرش مأرب عمرو بن عامر ماء السماء المزيقيا[4] ، وكانت زوجته « ظريفة » ماهرة في علم الكهانة خبيرة بفنونها ، وقد رأت أحلاما ورؤى تنبيء عن شر جسيم يتهددهم ، وفي ذات يوم قالت لزوجها الذي لم يكن يثق في عرافتها : « إمض إلى السد فان أبصرت فأراً[5] ينبش السد بمخالبه ويقذف قطعاً كبيرة من الصخور بقدميه الخلفيتين فتيقّن بأن العذاب قد حلّ بنا » فمضى عمرو إلى السد وأنعم النظر فشاهد جرذاً يحرك حجراً كبيراً يعجز خمسون رجلاً جلدا عن نقله من مكانه فأيقن عمرو أن السد منهار ، وأن الأرض لابد هالكة بمن عليها ، فعزم على بيع أملاكه والرحيل بعائلته ، لكنه خشي أن يبعث الاضطراب إلى قلوب السكان ، فدبر حيلة ناجعة ، ذلك أنه دعا أشراف المدينة ورؤوسها إلى وليمة فاخرة مدها لهم ، واتفق مع ابنه أن يثيرا الخلاف بينهما (أو بينه وبين اليتيم الذي درج في بيته كما يقول آخرون) وتبودلت بينهما الضربات فصاح عمرو : « وافضيحتاه !! أفي يوم مجدي وفخري يسبني ويلطمني غلام عاق ؟ » ثم أقسم أن يقتل الفتى ، فتوسّل إليه ضيوفه أن يرحمه ويرأف به فأجابهم ، بيد أنه أقسم قائلاً : « لا أقيم ببلد لطم وجهي فيه أصغر ولدي وسأبيع أرضي ومتاعي » وإذ نجح في الخلاص من أعبائه — إذ لم يعدم مشترين لبوا دعوته واغتنموا غضبته — لم يتردد في أن يخبر الناس بما يتهددهم من بلاء ثم بارح مأرب على رأس جمع حشيد ، ثم أخذت المياه تثقب السد شيئاً فشيئاً وتغمر الأرض ، مرسلة في لجتها الدمار طولاً وعرضاً ، ومن هنا نشأ المثل القائل « تفرقوا أيدي سبأ » أي تشتتوا كما تشتت قوم[1] سبأ

وإن ذلك الطوفان ليؤرخ فترة من تاريخ بلاد العرب الجنوبية ثم غاضت المياه واخضرت الأرض بعد المحال وعادت إلى الايناع والزرع ، بيد أن مأرب ظلت مهجورة ، واختفى السبئيون إلى الأبد إلا ما يذكره الأعشى في قصيدة له من قوله[2]

وفي ذَاكَ لِلمُؤتسي أُسْوَةٌ ... وَمَأرِبُ عَضَّ عليها العرِمُ
رَخَامٌ بَنَتْهُ لهم حِمْـــيرٌ ... إذا جاء مَوَّارُهُ[3] لم يَرِم
فأروَى الزُّروع وأعنابَها[4] ... على سِعَةٍ مَاؤهَا إذْ قَسَم
فَصَارُوا أيادِيَ مَا يَقْدِرون ... مِنهُ على شُرْبِ طفلٍ فُطِم

وليست في كلام الشاعر عن حمير دقة تاريخية ، أما الحميريون وعاصمتهم ظفار (صنعاء فيما بعد) فقد صاروا حكام اليمن بعد

(١) لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل) « ٣٤ : ١٥ — ١٦ من القرآن » أما الخرائب الباقية فقد وصفها Arnaud في الجريدة الأسيوية المجموعة السابقة ٣٢ (١٨٧٤) ص٣ وما بعدها

(٢) راجع مروج الذهب (طبعة باريه دي مينارد) ج ٣ ص ٣٨٧ وما يليها والنويري Pimoe lineoe Rerum Arab icarum ص١٦٦ وما يليها

(٣) ربما كان لقصة الهجرة من مأرب — التي ذكرت — أساس تاريخي ولكن السد نفسه لم يتهدم كله إلا بعد دهر طويل ، وإن النقوش التي عثر عليها منحوتة في الصخور الباقية منه ليستدل منها على أنه ظل قائما حتى منتصف القرن السادس الميلادي وإن أول فيضان معروف قد وقع بين عامي ٤٤٧ — ٤٥٠ م كما أعاد بناء بعض أجزاء السد « ابرهة الحبشي » والي اليمن بين ٥٣٩ — ٥٤٢ م . راجع ذلك في « كتابات في انفجار سد مأرب لجلاسير »

E. Glaser: Zuli Inachaiften ueber den Dammbruch von Mârip (Mitteilnngen der Vorderasiatischen Gesellschaft. 1697.)

(٤) يقول الأستاذ نيكلسون إنه كان من عادة عمرو بن عامر أن يمزق ثوب نهاره كلما جن الماء . أما صاحب كتاب « التيجان في ملوك حمير » فيقول « سمي مزيقيا لأنه كانت تنبع له في كل سنة ثلثمائة وستون حلة ثم يأذن للناس في الدخول فاذا أرادوا الخروج استليت عنه وتمزق قطعا ولذلك سمي مزيقيا » ص ٣٦٢ طبعة حيدرأباد الدكن سنة ١٣٤٧ هـ (المترجم)

(٥) وقد قال في ذلك أحد الشعراء :

وقد هد قدماعرش بلقيس هدهد ... وخرب جرذ الأرسداً لمأرب

(المترجم)

(١) Freytag: Arabum Proverbia, Vol I, P. 497
وترجمته هكذا

Abiesunt tanquam agmina Sabaeorum; et dispersi sunt tanquam agmina Sabaeorum

(٢) الهمداني : الأكليل الكتاب الثامن طبعة ميلر في S.B.W.A, في فينا ١٨٨١ ج ٩٧ ص ١٠٣٧ ، وقد نقل هذه الأبيات ياقوت الحموي في شيء من التغيير في معجمه (طبعة وستنفلد) ج ٤ ص ٣٨٧ وابن هشام ص ٩

(٣) بفتح الميم وبعضهم يرويه بالضم والفتح أصح مأخوذ من قوله تعالى « يوم تمور السماء موراً »

(٤) قوله « فأروى الزروع وأعنابها » أي أعناب تلك البلاد (ابن هشام)

انفجار سد مأرب وتلاشى السبئيين الذين أقاموه [١]

أما تبع الأول — الذى أطلق لقبه مؤرخو المسلمين على من خلفه من ملوك حمير فيسمى « حارث الرائش » لأنه زين بيوت قومه بالغنائم والأسلاب مما جلبه معه — كفاتح — من الهند وأزربيجان [٢] ، أما عن التبابعة الذين ولوا الحكم بعده فان بعضهم يدين بدرجه فى سلسلة حمير إلى النسابين الذين كان احترامهم للقرآن يفوق دقتهم النقدية كما حدث مثل هذا بشأن المخلوق الخرافى صعب ذى القرنين ، وإن الأبيات التالية لتخلط بينه وبين ذى القرنين العجيب الوارد نبؤه فى القرآن والذى يعتبره معظم المفسرين نفس الأسكندر الأكبر [٣]

لنا مُلك ذى القرْنين هلْ نالَ مُلكهُ
مِن البشرِ المخلوقِ خلقٌ مُصورُ ؟
نوى ثمَّ يتلو الشمسَ عِند غُروبِها
لينظُرَها فى عينِها حينَ تُدْحرُ
ويسمُو إليها حين تطلعُ غدْوَةً ليلمحها فى رُجعها حينَ تظهرُ
دليلاً بأسبابِ السماءِ نهارُهُ [٤] وليلاً رقيباً دائماً ليسَ يفترُ
وأرْصدَ سدًّا من حديدٍ إذا بدا ومن عينِ قطرٍ مترعاً ليسَ يظهرُ
رَمى فيهُ يأجوجاً ومأجوجَ عُنْوةً
إلى يومَ تُدْعى للحساب وتُنشرُ [١]

(يتبع) ترجمة حسن حبشى

الصباح الجميلة » (راجع ما كتبه D. H. Muller فى S. B, W. A. مجلد ٩٧ ص ٩٣٧ وما يليها) ونجد فى النقوش المينية « عشتر الجالسة وعشتر الواقفة » (شرحه ص ١٠٣٣) أضف الى ذلك أن عشتر والفه يذكران فى أقدم النقوش دائما مقرونين بعضهما ببعض . أما « الفه » (وهى فينوس أو الزهرة كما يذكر الهمدانى) فيعتبرها علماء الآثار القديمة من العرب بلقيس ، أما عن « قرن » بمعنى « أشعة أو ضوء » فراجع ج ١ ص ١١٤ من كتاب جولدزيهر Abhand - zur Arab. Philologie ولا يحوم كثير من الشك فى إضافة اسمى « ذى القرنين وبلقيس » إلى الأمثلة العدة لهذا التغيير الذى بواسطته استطاعت كثير من آلهة الوثنية أن تظل قائمة فى ظل الاسلام بعد أن تنكرت بأسماء مختلفة

(١) Von Kremer Altarabis-che Gedichte ueber qei Vol- kssage von Jemen P. 15 (No. viii, 6 seg)
وهذه الأبيات لحسان بن ثابت شاعر الرسول

(١) وقد وجد الوصف التالى محفورا على حجر من الفراميد الصخرية التى وصفها أرنود فى الجريدة الأسيوية بتعريبين (بتشديد الياء وكسرها) ابن سمه على ينوف أمير سبأ قد نقب جبل البلق وبنى السدود (وتسمى رحب) لتنظيم الرى وميللر (المرجع السابق ص ٩٦٥)

(٢) لم ترد بتاتا كلمتا « حمير وتبع » فى النقوش القديمة ، أما فى الحديثة فلم ترد إلا قليلا جدا

(٣) يقصد ما جاء فى سورة الكهف (ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا ، إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سببا فأتبع سببا ، حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ووجد عندها قوما قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا ، قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا ، وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا ، ثم أتبع سببا ، حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا ، ثم أتبع سببا ، حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولا ، قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا ؟ قال ما مكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما ، آتونى زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا ، حتى إذا جعله نارا قال آتونى أفرغ عليه قطرا ، فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا) (المترجم)

(٤) وصف الهمدانى فى كتابه جزيرة العرب (ص ٣٦ س ١٠) ذا القرنين بأنه « ساح الأرض » وإذ نترك مجال التاريخ الأدبى لحظة لأشرح الخرافة التى تتسرب من خلال هذه الأبيات ، فيظهر لى أن « ذا القرنين » إنما يقصد به الآلهة السبئية « عشتر » التى تمثل « نجمة

المآسى التاريخية الكبرى

بقلم الأستاذ حسن الشريف

هذا كتاب يجمل بكل شرقى أن يقرأه وأن يطيل فيه التفكير فان كل فصل من فصوله الأربعة والعشرين يحتوى درساً بليغاً يحدثنا أننا لم نعرف من مدنية أوروبا سوى مظاهرها الزاهية وألوانها البراقة ، وأننا نجهل ماوراء هذه المظاهر والألوان من فضائح يثور لهولها الضمير البشرى وينددى من عارها جبين التاريخ . نعم ليقرأ الشرقيون هذا الكتاب ليتعلموا منه كيف يعتزون بمدنية أسلافهم إذا هى وضعت فى ميزان الحقائق إلى جانب مدنية الغربيين ، فأن تلك المآسى التاريخية الكبرى مرآة صادقة تتجلى فيها مقابح أزهى العصور فى تاريخ أوروبا ومخازى أعظم الملوك وأنغم الأسماء فى تلك العصور . وهى فوق ذلك تحفة أدبية نفيسة تمتاز برشاقة الأسلوب ورقة التصوير فلا غنية عنها المدرس ولا للطالب ولا للأديب

أطلبوا هذا الكتاب الممتع من مكتبات القاهرة المعروفة ومن مكتبة فيكتوريا بالاسكندرية بشارع سعد زغلول وثمنه ١٥ قرشا صاغا